لعب العيال

بقلم : وصفى آل وصفى

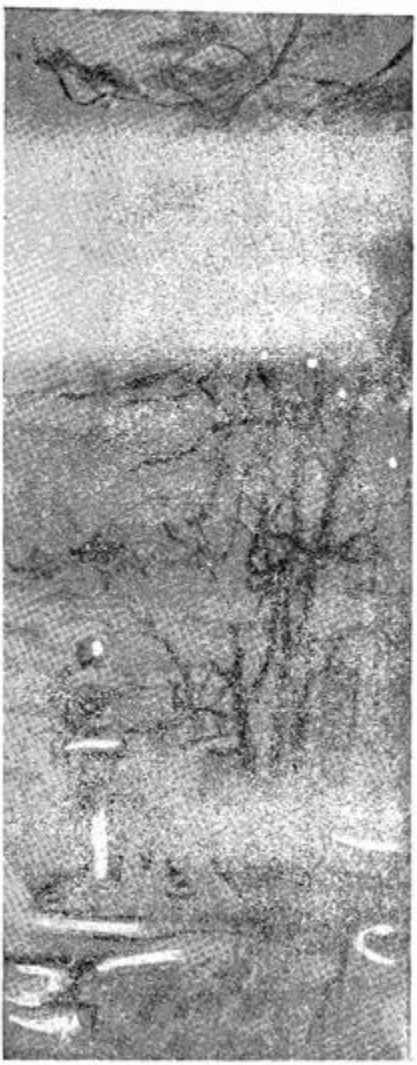

أمى ، وأختى ، وأخى ، وعمتى ، وزوجها ، وأنا ..

اجتمعنا فى غرفة الضيوف ، نشرب الشاى ويلامح بعضنا البعض . كنت اعرف سبب الاجتماع ، فقد حدثتنى أمى ، وجادلتنى وتركتنى مستاءة ... وطاردتنى أختى ، حاورتنى ، وضايقتنى مداعباتها طوال الأسبوع .. « لو أعرف فقط من تحبين ؟! أحد أمرين ، تحبين .. أو مجنونة ! » .. وكلمنى أخى .. عنفنى ، ثم هددنى بأن يستعمل «سلطته» باعتباره ولى أمرى المسئول عن مستقبلى ! أما عمتى وزوجها فكان وجودهما أمرا طبيعيا .. وهو صديق الحاج نصيف جمعتهما الوظيفة حتى احيلا الى المعاش فجمعتهما قهوة «المالية» ، وهى صاحبة الحاجة سنية «الروح بالروح» ، والحاج نصيف والحاجة سنية والدا عمر .. الدكتور عمر ، والدكتور عمر أو بتعبير أدق أنا والدكتور عمر سبب الاجتماع .

كنت أحب الشاى ، يلذ لى أن ارشفه على مهل ، بيد ان ضيقى وتوترى عطلا استمتاعى به فتجرعت

فنجالى وتناولت كيس الصوف اشغل يدى ريثما يهجم «المتآمرون» ..

وكانما كانت أمى تنتظر حركتى هذه ، فما كدت أعقد بضعة غرز حتى اهابت بى :

ـ سعاد ، دعى الصوف .. واشتركى معنا .

لم يكن يسعنى ان اتجاهل كلامها ، فارخيت يدى فى حجرى ورفعت وجهى امس عينيها بضراعة صامتة .. لكنها تفادت نظرتى واستأنفت على الفور :

ـ ليس بيننا غريب ، أخوك واختك، عمتك وعمك .. كلنا تهمنا مصلحتك. عمتك تطلب ردا ، الدكتور عمر أمه كلمتها ثانية .. نراه مناسبا ، فما رأيك ؟

وابتسمت رغما عنى ، أجبتها فى صدرى : على خيرة الله ، مادمتم ترونه مناسبا . مبروك ، تزوجوه ! وابتسمت رغما عنى .. واذا عمتى تهلل : «البدر ابتسم ياجماعة ، زغردى ياأم محمود.. أم ازغرد أنا » !

ذعرت .. خشيت ان تستجيب امى لصيحتها ، او ان تفعلها هى . كدت ارجوهما ان يشفقا على ويرافا بى، ثم تذكرت اننى عاهدت نفسى ان الزم الصمت فلا انبس بكلمة فى هذا الاجتماع؛ لقد تداولوا وتشاوروا وقرروا عقد اجتماع عاجل »، دون أن يصارحونى طبعا بانهم ينوون « الضغط » على .. فليتكلموا هم اذن ويكفى أنى أستمع ! والهيت نفسى بالتفكير ، حتى اسمع جديدا .. قلت اطمئنها : فيم الخوف والذعر ؟ فلتزغرد أمى وعمتى ، لتزغرد اختى ، ليزغردوا جميعا ومعهم أخى وزوج عمتى .. فانا فى حمى القانون. لن يستطيعوا معى شيئا ما لم أرض عمر .. الدكتور عمر ، زوجا . واذا كان ثمة من يجب أن يخاف ، يذعر ، فهو الدكتور عمر ، العريس الذى يريدون أن يزوجوه انسانة لاتحبه .. يريدون؟ الذى يريد أن يتزوج انسانة لا تحبه !

وجاءنى صوت اخى، خشنا انتنتفض نبراته فتنم على ما يدارى من غضب :

ـ سعاد ، اسمعى .. لم تعودى صغيرة . انا لم أكتف بكلام زوج عمتك، سألت عن الدكتور عمر الكثيرين ... وانت أيضا قابلته أكثر من مرة .. ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟

رفعت اليه وجهى أعاتبه فلم يفهم نظرتى ، كان من العسير عليه أن يفهم .. فأغمضت عينى أبتهل : انقذنى يا رب ، احمنى من أخى ... ودع لى الباقين !

وصاحت أختى ثملة بنزق آخر العنقود :

ـ صحيح .. ماذا تريدين أكثر من ذلك يا سعاد ؟!

فنظرت اليها فى صمت ، أستمع الى ذهنى يرد عليها ساخرا : أريد أن أحبه! الرجل الذى سوف أمنحه جسدى وروحى ، حياتى ، لا بد أن أحبه . قد يكون عمر شابا طيبا ، لا عيب فيه ، ولكن هذا لا يكفى يا سوسن . انا لن أتزوج الا رجلا احبه ، أعرف عن يقين

انه ·· أننى أحبه · والحب يا سوسن شيء آخر غير تلك الأغانى التى ترددينها رائحة غادية ، الحب ···

وتكلم زوج عمتى :

ـ اسمعى يا سعاد يا بنتى ·· والله لولا أننى أعرفه جيدا ، وأعرف اباه ، لما تدخلت ·

وعقبت عمتى :

ـ والله لو المرحوم والدك يعيش لأعجبه ، دكتور وشاب ·· وأدبه لا يعلى عليه ·· ماذا تتمنى الواحدة أكثر من هذا ؟

ورقص لسان سوسن فى فمها فأطلقته :

ـ الحب ياعمتى·· هو موظف تشغله عندها؟ ألا تذهبين الىالسينما ياعمتى؟!

فصرخ أخى يزجرها :

ـ سوسن ! كفى ·· عيب الكلام الفارغ! كبرت على لعب العيال، احترمى نفسك ··

وشرد فكرى : مسكين أخى ، مسكين حقا ·· زوجوه بطريقة « محترمة » أكبر بكثير من لعب العيال ! زفوه الى منيرة، زوجوهما ·· زوجتهما العائلتان لمجرد أنها جميلة وأصيلة وأنه شاب ومهندس وأدبه لا يعلى عليه · وقضى شهر العسل فبدءا « كوميديا الاخفاق » المحزنة ، وحاولت الأسرتان بطبيعة الحال أنتوفقا بينهما بكافة الطرق ·· بأية طريقة وأى شكل ·· فلم تفلحا · ومع ذلك لم يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه لا «يريد» منيرة ، وأنها هى أيضا لا « تريده » ·· حتى وقع الطلاق !

ويبدو أننى نسيت ، أشحت بوجهى ومصمصت بشفتى ، وخاطرى يعاتب أخى : حتى أنت ياحمود ، أنت «تضغط» على ·· بعد التجربة ؟ لا بد أنى فعلت ذلك دون انتباه ، فقد لطمنى صوته يزمجر فى كبرياء غبية وهو يلوح بيده الى ناحيتى :

ـ والله عال ! كلامنا لا يعجبها !

وتحرك لسانى ، ولكننى لم اسمع صوتى ، تعلقت بحلقى غصة ·· نبض عنقى ·· واختلج أنفى، والتهبتأذناى، طرفت بعينى فذابت دموعى وبكيت ··

***

كان بكائى ايذانا بفشل الاجتماع··

نطت سوسن تحتضننى وتقبلنى ·· حسبتنى أفتعل البكاء لأنجو بقلبى فجعلت تحتضننى وهى تردد : « خلاص يا حبيبتى ، ولا يهمك ·· لا تريدينه ؟ خلاص ·· لا تأخذيه ! » ، ثم تقرصنى وتميل فتقبلنى لتهمس : « دموع ··· بكاء ·· مزيدا من الدموع والبكاء » !

كاد صدرى أن ينفجر بالضحك ، لولا أن أخذنى رد فعل حاد فصرخت·· وجريت الى غرفتى وأغلقت الباب · وارتميت على فراشى أدفن وجهى فى وسادتى الحبيبة ، وسكبت ما تبقى من دموعى · ومضى بعض الوقت وأنا منكبة على وجهى فيما يشبه الحلم ، كانت الأصوات تأتينى من غرفة الضيوف مجرد حسيس لا شكل له ولا معنى ،

فانصرف انتباهى عنها تدريجيا وراح يجتر بعض المواقف مما أفضى بنا الى اجتماع غرفة الضيوف ..

هذا عمر .. الدكتور عمر ، أول مرة شاهدته عندما ذهبت الى عيادته مع أمى . بعد ما عاد من الخارج ترددت عمتى الى منزلنا تلح على أمى أن « تجربه » ، وذات يوم سألتنى أمى :

ـ سعاد ، مارأيك .. أفكر فى الذهاب الى الدكتور عمر فقد أرتاح معه أكثر ؟

وابتسمت فعادت تسألنى :

ـ ما يضحكك ؟

ـ أبدا ، نذهب اليه فقد ترتاح عمتى !

وذهبت معها ..

وخرجنا من عيادته ووقفنا ننتظر المصعد ، فقالت أمى :

ـ يبدو ابن حلال ، وظريف .. أليس ظريفا يا سعاد ؟

وعبست أصطنع الدهشة ، وقلت أداعبها :

ـ مستحيل ؟

ـ ما هو المستحيل ؟

ـ صغير يا ماما .. عليك !

فضحكت تلقننى درسا خفيفا فى الأدب ..

وبعد أسبوعين صحبتنى الى عيادته للمرة الثانية ، فلاحظت أنه يخاطبنى بطريقة رسمية يشوبها ذلك البرود

الذى يشيعه فى أحاديثنا عدم الاهتمام. لم يتغير شىء من طريقة معاملته لى فى المرة الأولى ، غير أننى تذكرت حديث أمى عن ظرفه فراقبته . كان ظريفا حقا .. مع أمى ، أما معى فكانت العبارات القليلة التى استقبلنى وودعنى بها خالية تماما من أى ظرف أو تظرف!

استراحت أمى الى الدكتور عمر ، فأصبح طبيبها .. وطبيب العائلة فيما لا يستلزم أكثر من استشارة تليفونية. وكنت أرافقها كلما ذهبت الى عيادته ، حيث أجلس كشخص أجنبى .. أعجب لهما يتبادلان «السلامات» و «الدردشة» كصديقين قديمين وأحاول ان أتذكر اين قرأت أن « المرأة مخلوق رقيق تأسره المعاملة الرقيقة » ! وانقشع البرود عن معاملته لى تدريجيا ، فصار يبتسم وهو يخاطبنى .. وهو يرحب بى ... وهو يودعنى، بيد أنه لم يتخفف من الرسمية ولم ينبسط معى أبدا . وتنبهت بعد حين الى أن أمى تغالى فى الاهتمام بزينتى كلما حان موعد ذهابنا الى عيادته ، واستفز تصرفها هذا كبريائى فكنت أتعمد الاهمال .. وبين اهتمامها المكشوف وعنادى اندلع الكثير من الخلاف والمناقرة والنكد والغضب .

وبدأت عمتى تكثر من زيارتنا ، وتطيل الزيارة .. وتفتح « سيرة » عمر فتمدح وتطنب . وفى النهاية ظهر زوج عمتى ، وانتظمت زياراته مع عمتى .. مما ألهم سوسن الكثير من التفسيرات المضحكة لما طرأ على الدنيا فتسبب فى هذه المحبة الجارفة بعد أن كانت ظاهرة موسمية لا تهب علينا فى غير الأعياد !

وذات مساء، وأنا أصبغ شعر أمى.. سألتنى :

ـ سعاد ، جدا .. ما رأيك فى الدكتور عمر ؟

كانت سوسن فى الغرفة المجاورة تذاكر ، ولعلها كانت تطالع محاضرات الشريعة ، فسمعت السؤال وتطوعت بالسخرية :

ـ حدثتنا عمتى ، عن زوجها .. عن أبى عمر ، عن أمه ، أنه لا قبله ولابعده! كلها أحاديث ضعيفة ، ضعيفة للغاية!

وضحكت ، غير أن أمى استحثتنى همسا : « دعك من سوسن ، أسأل جدا .. ما رأيك فيه ؟ » .. وحدست فى تلك اللحظة أن المحظور معلق فوق رأسى كسيف ، « داموكليس » ... المحظور ؟ طبعا ، كل ما يتعس الانسان محظور ، والزواج على غير حب يتعس الانسان ، وعمر .. وأنا لا أحب عمر..

وفجأة ، قبل أن أجيب ، أسندت أمى رأسها الى صدرى تقول فى صوت واهن : « سعاد أسندينى ، أنتفض .. أدوخ .. يا سعاد » فالقيت فرشاة الصباغة واحتضنتها أنادى سوسن لتستدعى الدكتور عمر . ثم شغلت بأمى حتى رقدت ، وصعدت الى جوارها أعتنى بها وأدللها .. وأهدهد مخاوفى.

أسرع عمر الينا فاستقبلته سوسن وقادته الى غرفة أمى ، ونادتنى قبل أن يدخلا ولكننى لم أنتبه الا وهو يلمس كتفى ويستأذننى : « لو سمحت .. ». وارتبكت ، وهبطت من الفراش وفى

وجنتى حياء يلتهب . وتقدمت سوسن تقف امامى وتحجبنى، أتاحت لى الفرصة لأنسحب ، ومع ذلك لبثت فى مكانى لا اتحرك ... حافية عارية الكتفين متوهجة الخدين. ومضت لحظات ثم تكلم، لم يوجه حديثه الى اى منا .. قال فى هدوء دون أن يلتفت الينا : « سليمة باذن الله ، أنفلونزا حادة بعض الشىء. مياه ساخنة لغلى الابرة لو سمحت وغطاء آخر .. » ، فاستجبت فى الحال وخرجت أهرول .

وبعد أيام انفردت بى أمى وبدأت المعركة ، اخبرتنى أن أمه طلبت من عمتى أن تجس « النبض » وتمهد «الجو» وتتعرف شروطنا ورغباتنا .. ورفضت أن أتجاوب معها فجادلتنى طويلا ثم غاضبتنى مستاءة. وذاع الخبر فطاردتنى سوسن تعلق بلسانها الساخر ، ثم تبعها محمود يجرب الأمر والزجر .. فلم أضعف . قلت لهم جميعا ، لا ، لا .. لا .. وأبيت أن أصارحهم بسبب رفضى. كان من الممكن ان أقول ببساطة: لا يحبنى ، لا أحبه ، بهذه الطريقة لا يمكن أن أحبه .. لو أن امى كانت تقرأ فيتطور فهمها للزواج ، لو أن أخى كان قد تعلم من تجربته فآمن بالحب ، لو أن سوسن كانت تعرف ما هو الحب .. الحب الحقيقى لا حب العيون الكحيلة والشعر الحرير !

لو .. لو ..

لو أننى أحب عمر ..

لو أنه يحبنى ..

ونمت ..

***

أصبحت فكان أول ما خطر ببالى أن اليوم موعد ذهاب أمى الى عيادة الدكتور عمر لقياس « الضغط » ، ثم تذكرت.. ومع الذكرى أخذتنى الحيرة وأسلمتنى الى فكرة : ترى هل أصاحب أمى اليه كالعادة ، أم أمتنع فتحل محلى سوسن؟ لكن ماذا تراه يظن بى اذا لم أذهب ؟ سوف يحسبنى أعانى خجلة تمسكنى عن مقابلته ، سوف يذهب به الظن مذهبا أو آخر .. وسوف يسوؤنى أن يذهب به الظن أى مذهب . لا بد اذن من مواجهته ، أجل أذهب فأواجهه ، كلانا مثقف ، نعيش فى نور القرن العشرين.. لن تتعجل عمتى فى الاعتذار الى أمه ، فاذا ذهبت اليه اليوم وأبلغته الرفض بنفسى كان ذلك درسا لاينسى!

استتر رأيى فأزحت الغطاء بقدمى ووثبت من الفراش ، وفتحت النافذة وشرعت أمارس رياضتى الصباحية وأناقش موقفى معه: كيف أبدأ حديثى؟ كيف أحاوره اذا حاورنى ؟ كيف أغلق باب الخطبة فى وجهه بحيث لا أدع مجالا للبس .. ولا أحرجه ؟ وأخيرا وقفت أمام المرآة أسوى شعرى وأتأكد من وضوح الهالتين الداكنتين حول عينى ، كان على أن أحتال لأمى ، فلئن استنفرت حنانها ظاهرتنى ووقتنى الكثير من طيش سوسن وعنجهية محمود وتطفل عمتى!

وغادرت غرفتى فوجدت أمى تستمع الى «ربات البيوت» ، لم تشعر باقترابى فأخذت أدعك عينى ... وقلت وأنا أجتهد أن يخرج صوتى بليدا :

ـ صباح الخير يا ماما ..

وفى الحال اندفعت يدها الى مفتاح المذياع فأسكتته ، والتفتت الى تقول فى لهفة :

ـ صباح الخير يا سعاد ... هكذا يابنتى ؟ اغضبت اخاك ، وعمتك .. من يفعل فعلتك ؟!

كان غاية ما أريد أن يتهدج صوتى وأنا أجيبها ، ولكننى لم أكد أفتح فمى حتى غلبنى الانفعال فبكيت .. وانهرت راكعة أخبىء وجهى فى حجرها وانتحب:

ـ ماما ! لماذا ؟ ماما .. ماما !

وفى حنان انسابت كفاها على شعرى فاحتضنتنا ذقنى ، وقالت تعاتبنى كأنما تخاطب طفلا غريرا :

ـ عيب يا سعاد ، عيب.. لم تعودى صغيرة ! كم مرة وأنت ترفضين خطابا لا عيب فيهم .. هى البنت مالها غير الزواج ؟

انحسر عنى الضعف فى لحظة، ونفضت رأسى فأقمتها .. وامسكت ركبتيها أصيح :

ـ ماما ..

ـ عينى يا بنتى ؟

ـ كيف سأتزوج عمر !

ـ كما تتزوج الناس يا بنتى ..

ـ والنـاس ... كيف تتزوج من فضلك ؟

ـ يخطبون ، يكتبون ويدخلون ..

ـ دعك من الخطبة ، ماذا يفعلون فى كتب الكتاب ؟

ـ يتعاهدون ، يهبون أنفسهم لبعضهم ..

ـ وماذا يفعلون فى الدخلة .. لو سمحت ؟

انفرجت شفتاها لتجيب، ثم انطبقتا. وابتسمت تهز رأسها ، ومدت يدها تفرص وجنتى وتراجعنى :

ـ لا .. زدتها حبتين ، ارزنى يا سعاد ... قومى اغسلى وجهك وكلى لقمة ثم نتكلم . عمر يا سعاد ..

وقبل أن تحدثنى عن عمر قفزت أقاطعها :

ـ أنا أحكى لك عن الدخلة ... ما يحدث فى الدخلة ! فى الدخلة يتحدون ... البنت تعطى زوجها كل شىء .. جسمها .. كل ذرة فى جسمها، وروحها .. كل همسة فى روحها . والشاب يعطى امراته كل شىء ، جسمه .. كل ذرة ..

ـ وماله يا بنتى .. هو حرام ؟

ـ وأبو الحرام لما واحد من الاثنين يكون .. أعنى لا يحب الثانى ، غصب أو استسلام أو شهوة ..

ـ يتحابان بعد الزواج ، بعد الزواج الواحدة يا بنتى ..

وفجأة هجمت عليها أقول :

ـ ماما .. اعطنى قبلة !

فرفعت يديهـا الى صـدرى بحـركة تلقائية تصدنى برقة :

ـ ارزنى أولا وأنا أقبلك مائة قبلة.

ـ أرأيت ؟

ـ رأيت العجب يا سعاد !

وابتعدت عنها لأجلس وأكلمهـا على مهل :

ـ لا عجب ولا دهشة .. اذا كانت قبلة واحـدة لا تريدين ان تعطيهـا لى « أنا » غصـبا عنك .. كيف تريدينني اذن أن أعطى جسـمى كلـه وروحى كلها لعمر غصبا عنى؟ ارزنى وأنا اقبلك مائة قبلة .. يعنى ؟ لما أرزن أعجبك ، ترضين عنى . تحبيننى .. ولما تحبيننى تقبلينني أليس كذلك!؟ بعد الزواج.. واذا لم يتحابا بعد الزواج ؟ ولم نذهب بعيدا ؟ هذا محمود .. أدب أصل .. كمال، ماذا ينقصه؟ ومنيرة أيضا، لايعلا عليها .. أليس كذلك ؟ لم يتحابا من الاول يا ماما ، تزوجا على فـكرة فيما بعد .. بعد الزواج ، والهيبة خيبة !

وسـكت أتاملهـا ، وأسـتمتع بلذة الشعور بالغلبة ، فتنهدت تقول :

ـ والله يابنتى لاأعرف ، أنا علمتكم وخلص ضميرى يا سعاد يا بنتى. لكن عمر يحبك يا سـعاد ، والله يحبك .

لو تسمعين كلام عمتك.. كيف نتصرف يا سعاد ؟ كيف نقول له يا بنتى سعاد لا تحبك !؟

امى ، وأختى ، وانا ، والضيوف : عمتى وزوجها والحاجة سنية ·· وعمر ·· جمعتنا غرفة الضيوف ، نشرب الشاى وتتبادل المجاملات ··

عمر !

لم أكن أعرف سببا يبرر حضوره مع والديه لزيارتنا بعد ما دار بيننا من أسبوعين ، صحيح أن امى انصاعت لوسوسة عمتى فاخذت أخى وذهبت تزورهم « حتى يبقى الود ··· وان رفضنا » ·· لكننى أجبته بنفسى فكيف يأتى معهما ليجلس قبالتى فى هدوء ويبتسم كأن شيئا بيننا لم يكن ؟!

ثم اننى لم أعرف بخبر هذه الزيارة الا ظهرا ، ونحن نتناول الغداء قال أخى فجأة ينبىء أمى : « ماما ، الحاج نصيف والحاجة سنية يزوراننا بعد الظهر · الدكتور عمر كلمنى فى المكتب ، هو حاضر معهم » ·· فاذا هى تجاوبه ببساطة : « أعرف يا بنى ، عمتك كلمتنى » · وصرخ كيانى يحتج ، الا أننى حشرت شفتى بين أسنانى وكظمت ثورتى : هكذا ؟ دون مراعاة لشعورى؟ ويقولون ان المرأة تحررت ! حسنا ، فليأت ·· اليوم وغدا وكل يوم · هو عمر وأنا سعاد ، لن ينال منى شيئا عن طريقكم أبدا · تأمروا ، تأمروا ، تأمروا فلن أتزوجه الا اذا أحبنى ··· اعترف بوجودى ··

وأتى ، وجلس قبالتى يرشف الشاى فى هدوء ويبتسم !

وتناولت كيس الصوف أحرق ضيقى اضطرابى، أعقد غرزة وأحل غرزتين·· حتى تظرفت عمتى تقول :

ـ وبعدين معك يا سعاد ! عليك ذنب يا بنتى ·· شغل شغل شغل ؟! دعى التريكو قليلا يا شيخة وتسلى معنا ، أسمعينا كلمة ·· حكاية ، أى شىء ·

كان من الجائز أن يتأول عمر صمتى فتشوبه شبهة خجل أو استخذاء ، فأرخيت يدى أطيعها :

ـ حاضر يا عمتى ، لا مؤاخذة ··

ورفعت عينى فبغتتهما ابتسامة عمر، ونقلتها الى وجه عمتى فأثارتنى نظرتها المتعطفة · وتشبثت نظرتى بعنقها ، أتصور أصابعى تخنقه بخيوط الصوف الى أن تقسم ألا تعود تتدخل فيما لايعنيها ·· وتبينت سوسن بوادر نقمتى فهبت لانقاذ الموقف :

ـ دعك منها يا عمتى ، أنا أحكى لك نكتة ·· تحبين النكت طبعا ياعمتى !؟

وتنهدت عمتى ، ونظرت الى أمى وهى تزم شفتيها فتكومهما على أحد جانبى فمها .. ثم اجابت بامتعاض :

ـ احكى يا سوسن ، احكى يابنتى!

ـ مرة كانت واحدة تحب بنتها بشكل غير عادى ، الحقيقة هى كانت عمتها لكن حنى لا تغضبى يا عمتى ·· وفى يوم ارادت أن تكحلها ··

اكتفيت بهذا القدر من نكتة سوسن، وذهبت أسترجع ما حدث غداة اجتماع غرفة الضيوف الأول منذ أسبوعين ··

كنت قد أفلحت فى التأثير على أمى

فسلمت او كادت ، قبل أن تستدرك ٠٠ « لكن عمر يحبك يا سعاد ٠٠ كيف نقول له يا بنتى سعاد لا تحبك ؟! » ٠ اذ ذاك كان من السهل أن أتظاهر بالتفكير فى مخرج لهذا المأزق ، فأشرد قليلا ثم أقترح عليها أن أواجهه بنفسى وأنهى الأمر معه ٠ وكم كانت دهشتى عندما تنبهت الى أننى شردت فعلا ، أتخيل عمر وقد فاجأته فلم يملك الا أن يحتج فى حيرة : « لكننى أحبك ياسعاد، والله أحبك ٠٠ » ٠ غير أننى استطعت أن أسترد شارة وعيى بسرعة ، وقلت أهون الأمر :

ـ المسألة بسيطة ٠

ـ بسيطة ؟ كيف يا سعاد ؟

ـ اذا كان لا يمكنكم أن تقولوا له ذلك فيمكننى أنا ٠٠٠

ـ أنت ؟!

ـ من غيرى ؟ اليوم موعد قياس الضغط ٠٠ أذهب معك وأنتهز الفرصة وأكلمه ٠

فما كان منها الا أن ضربت صدرها تصيح :

ـ يا خبر يا سعاد ٠٠ والله كان أخوك يذبحنا ! واحد يريد أن يخطبك فتذهبى اليه لتقولى له أحبك ولا أحبك ٠٠ من يسمح بهذا ؟!

أخذت بثورتها لحظات ، ثم أدركت سذاجتى وغبائى : كيف ؟ كيف أجاز عقلى احتمال أن تقر أمى مثل هذه الحماقة ؟ ربما لو كنت فاجأتها فى العيادة وتحدثت الى عمر ، ربما سكتت عندئذ ٠٠ أمام الأمر الواقع !

وصلصل جرس التليفون فقمت أجاوبه ، واذا عمتى تسأل عن صحتى! وبينما أنا أداورها خطرت ببالى الفكرة: التليفون ! أكلمه فى التليفون ، وأوفر عليه حرج مواجهتى وأنا أرفضه ٠٠

***

أرغمتنى قهقهة عمتى العالية على الانتباه ، ووجدتهم يضحكون جميعا فساهمت ببعض ضحكات فاترة ٠٠

واستأنفت سوسن :

ـ نكتة أخرى ، هيه ؟!

فصدها محمود والابتسامة تغيب عن شفتيه :

ـ كفى يا سوسن ، كفاية ٠٠

هزت سوسن كتفيها وقلبت شفتها السفلى وعلقت حاجبيها ، وتراجعت فى مقعدها تقول وهى تقلد حركات مغلوب على أمره :

ـ أمرك يا باشمهندس ٠٠ أمرنا لله يا باشمهندس !

وخيم الصمت ، ثم تكلمت أمى تحيى ضيوفها : « أهلا ٠٠ أهلا ٠٠، آنستم » ٠٠ واختلست النظر الى عمر فضبطنى، ضبطتنى عيناه ٠٠ كان يبتسم لى ، يشعل لفافة وعيناه على وجهى تبتسمان ٠٠ وحولت وجهى أنصت الى عمتى تقول : « أهلا يا حاجة ، زارنا النبى والنبى ٠٠ » ، وزوجها يردد وراءها :

« شرفت يا حاج ، شرفت يا دكتـور ، شرفتم ·· » ·

ولاحقتنى نظرات أمى حتى اصطادت عينى ، تومىء الى طبق البسكويت وتحدق ·· ولم أتحـرك فحسبتنى لا أفهم ، واستمرت تومىء وتخز عينى ، فلمـا ضـقت ذرعا باصرارها رميت به الى سوسن :

ـ سوسن قدمى ، عمتك لم تأخـذ شيئا ·· والدكتور !

وقامت سوسن فقـدمت الطبق الى عمر ، وأخـذ واحدة فرابطت تلح أن يأخذ ثانية :

ـ تفضل ·· واحدة أيضا ، عـذا بسكويت سعاد ! تفضل ، رطل ونصف لبن ، ثلاث أقات دقيق زيرو ، عـلى رطلين سمن وعشرين بيضـة ·· بالله ماذا تفعل ؟ ليسانس الآداب فى الدولاب أخونا أخته لا تشتغل !

وضحك عمر ، وضحكت ·· حبيبتى يا سوسن !

لم تقنع سوسن ، استخفها نجاحها فى اضحـاكنا فدارت تحكى قصـة بسكويت سعاد باضافات جديدة : كيف يعجن ، كيف يسوى ·· وكيف يؤكل ! وانتهزت فرصة فوضى الضحك ونظرت الى عمر ، وضبطته ، ضبطت عيناه على وجهى تبثان عينى ابتسـامة دافئة ·· عالجت أن أقاومهـا ، أصـدها ، أنكر الطمأنينة التى تربت بهـا قلبى ، فلم أطق · لم يسعنى الا أن أجذب نظرى الى لوحة وراء ظهره تمثل أمى والمرحـوم أبى فى ثياب زفاف مطلع القرن العشرين، ومع ذلك لم تفارق ابتسامته عينى ·· اختفت صورة أبى من اللوحة تدريجيا وانطبعت مكانها صـورته ··· وذكرت حديثى معه من أسبوعين ، طفا الى سطح فكرى فتناوله خيال سماعة التليفـون يرد على :

ـ آلو ··

ـ آلو ·· دكتور عمر ؟

ـ دكتور عمر يا هانم ·· أى خدمة ؟

ـ صباح الخير يا دكتور ، أنا سعاد عبد السميع ··

ـ أهلا ·· أهلا ··

ـ دكتور عمر ···

ـ نعم يا آنسة سعاد ، خيرا ، كيف حال الوالدة ؟

ـ دكتور عمر ، حضرتك طلبت يدى وانا ...

كنت اتوقع اننى لن أكاد انهى عبارتى حتى يبادر بالكلام فاكتفى أنا بالرد والدفاع ، لذا سكت . غير أنه لبث صامتا بعض الوقت ، فلما تكلم بدا لى صوته مضطربا .. قال :

ـ لى الشرف يا آنسة سعاد ، لكن .. أنا يسعدنى .. لكن .. الواقع ..

ـ أنا آسفة يا دكتور .

ـ ...

ـ أنا آسفة !

ـ ممكن .. ممكن أعرف السبب ؟

ـ دكتور عمر .. أظن انك فاهم !

وللمرة الثانية لم أتلق جوابا ، فاستجمعت شجاعتى بسرعة :

ـ أظن يا دكتور الزوجين لا بد أن يحبا بعضهما ليستطيعا .. ليستطيعا أن يواجها الحياة معا ..

ـ يعنى أنت ...

ـ أنا آسفة ، أنا أحبك .. قصدى اعزك ، قصدى كأخى ، لكن ...

ـ آنسة سعاد .. يمكننى أن أسأل سؤالا جريئا ؟

ـ تفضل ، لست محجبة !

ـ شخص آخر ؟

ـ لا ، لا أبدا ! لكننا ...

ـ لكننا ماذا ؟

ـ لا نكاد نعرف بعضنا ..

ـ لا نكاد ... تقابلنا عدة مرات ، وانا .. الحقيقة ...

وفجأة سكت كما لو كان قد اقتنع بوجاهة اعتراضى ، وانتظرت أن يتم حديثه فلما طال صمته تساءلت وأصابع يدى الخالية تلف خصلة من شعرى وتشدها :

ـ خلاص يا دكتور ؟

ـ خلاص يا آنسة سعاد ، أنا آسف.

ـ لا مبرر للأسف ، هكذا احسن ..

ـ فعلا أحسن .

ـ أنا شاكرة ..

ـ العفو .

ـ عن اذنك ..

ـ تفضلى ، سلمى على الوالدة .

ـ يصل ، عن اذنك ..

كنت أعلم أن « الاتيكيت » يسمح لى أن أضع السماعة أولا ، ومع ذلك لم أضعها الا بعد أن سمعت صوت انقطاع الاتصال من ناحيته . ثم لم أكد أضعها حتى انقبضت نفسى ، ودخلت غرفتى فانزويت . كنت أعتقد اننى أنهى بتصرفى هذا الأزمة التى سببها مشروع خطبته لى عن طريق محور «أمه ـ عمتى» فوجدتنى أرقد آخر اليوم وفى صدرى أزمة جديدة لا أعرف لها على التحديد سببا .

لماذا ؟

غمة وانتهت.. ففيم انقباضى ، قلقى وحيرتى واضطرابى ؟

كان محمود لطيفا ، لم يشر الى الموضوع بكلمة بعد عودته من عمله .. كذلك لم تقل أمى شيئا ، لم تحاول أن تستأنف حديث الصباح او كلام البارحة .. وسوسن ايضا خففت من لغوها وسخريتها ، وقصرتهما على معاكستى بنظراتها وسعالها بين الحين والحين !

وعمر كان مهذبا ، هادئا ، رصينا ، لبقا .. فلماذا أحجمت عن الذهاب مع أمى الى عيادته مساء ؟

لماذا جثم على صدرى شعور الخيبة ، وارهقنى ·· فلم يجرنى منه سوى ظلام الندم ! لماذا ·· وقد رفضت غيره من قبل ونعمت بالراحة ؟!

لماذا ؟ لماذا ؟

لأننى أحبه ! كنت أحبه من البداية !

عرفت ذلك بعد أسبوع من الضنى والسهاد ، بدأت المعرفة شكا لم يزل يراودنى فارفضه فيعاودنى الى أن رضخت وسلمت · وفى هذه الأثناء كانت عمتى تعمل جاهدة على اقناع أمى بضرورة تأجيل « الرد » ، والذهاب معها لزيارة الحاجة سنية · ولم تكن أمى بحاجة الى من يقنعها بأن العريس «لقطة» ، ولكنها ظلت مترددة بشأن الزيارة الى آخر لحظة · ومن خلال أحاديثهما التى كنت أستمع اليها اتفاقا ـ وقصدا ـ استنتجت الحقيقة المخزية : أن عمر لم يعهد الى أمه بطلب يدى ·· غاية الأمر أنه صارحها باعجابه بى وحبه لى ·· ربما ، فما كان من عمتى الا أن نشطت تعرض عليها صورى وتحدثها بمحاسنى وأخلاقى ·· ومهارتى ، وانتزعت منها تفويضا بجس « النبض » وتمهيد « الجو » !

وجن جنونى ·· وانزويت عاجزة لا املك أن أرد أمى عن جر أخى والانطلاق وراء عمتى ، قصرت شجاعتى عن احتمال هوان مصارحتها بأننى كلمت عمر ورفضته وهو الذى لم يطلبنى ! وهكذا انتصرت عمتى ، وعشت الأيام التالية فى حالة من البلبلة والتمزق لا أزال أذكرها فأفزع : أحبه ، لا أستطيع أن أنبس بكلمة ·· يظننى لا أحبه !

كنت لا أزال أنظر الى خيال عمر فى اللوحة وراء ظهره عندما سمعته يقول :

ـ مصادفة غريبة ، آخر سنة لى فى المانيا كنت أسكن مع عائلة بنتها الكبرى ·· لن تصدقونى ، صورة طبق الأصل من الآنسة سعاد · حتى أنى أول مرة شاهدت سعاد كاد لسانى يسبق ويقول ايفا ··

وسبق لسان سوسن يعلق :

ـ حلو ، رائع ·· ايفا عبدالسميع !

فزمجر أخى كهر وطئوا ذيله :

ـ سوسن !

وخفت أن يحرج عمر ، فاذا هو يلتفت الى سوسن يبتسم ويجاوبها بلهجة طبيعية وكأن هرنا لم يزمجر :

ـ لا حلو ولا رائع يا سوسن ،الحقيقة شمسنا ونسيمنا وسكر النيل ·· هذا كله يلون جمالنا بعذوبة مختلفة تماما · يجوز فى أعيننا ، لكن ·· لكننا لا نرى الا بأعيننا ·

كانت كلماته الأخيرة موجهة الى ، فبينما هو يختم عبارته دارت نظرته تدغدغ وجهى وتطل فى عينى ·· وأحسست سخونة الحياء تسرى فى وجنتى ، وتداعى الى خاطرى موقفى يوم مرضت أمى فبادر الينا وفاجأنى حافية عارية الذراعين ·· بيد أننى لقيت فرصتى لأتكلم فلم أدعها ، قلت وأنا أغالب خجلى :

ـ لكن العينين يا دكتور لا تكشفان جمال الروح والعقل ·· وهما الأهم !

فأشرقت عيناه بفرحة ظاهرة يرد على:

ـ والله ان كانت غاية العينين النظر ·· مجرد عملية النظر السطحية ، فالحق معك · لكن هذا استعمال خاطىء للعينين

.. المفروض أننا ننظر لنعرف ، لنقارن، لنستنتج ..

واحتجت سوسن :

ـ لكن هذا موضوع آخر يا دكتور ، لامؤاخذة .. لو أنك اندفعت فى المناقشة مع سعاد فلن نسمع أبدا حكاية صاحبك عبد السلام !

فضحك عمر ، وقال ونظرته معلقة بعينى لا تتحول :

ـ حلمك يا سوسن ، يا آنسة سعاد .. الواقع أنك قلت نفس الكلام الذى قالته ايفا لصاحبى المهندس عبدالسلام.

ووجدتنى أساله :

ـ وبعد ؟

ـ الحقيقة أنه طلب يدها هكذا فجأة من غير مقدمات ، صحيح أنه منذ زارنى فرآها وقدماه تعمقان أثرهما على سلم المنزل .. لكن المناسبة لم تسنح ليجلسا معا أو يخرجا معا فيتعرفا بعضهما البعض ويتقاربا . وفى يوم عزم وتوكل ، ووقع عليها كالسبع .. وأعطنى يدك يا ايفا ! صاحبتنا ظلت تضحك أسبوعا ، ثم أرادت أن تشعره بلباقة بالأمر .. ولا فائدة . كيف لا تحبه ؟ أسمر شهم ، جميل .. جده الكبير خوفو .. ولن تمضى شهور حتى يصبح مهندسا ملء السمع والبصر ! النهاية ، ظل يطاردها ويضايقها حتى قالت له يوما : « اسمع يا حبيبى .. أنا لا يمكن أن اتزوجك ما لم أحبك ، ولا يمكن أن أحبك ما لم أعرفك، ولا يمكن أن أعرفك ما لم أجلس معك مرة ومرة فنتكلم ونتناقش ونتفاهم.

وأنت أيضا .. أنت لا تعرف منى غير شكلى .. فمن أدراك أنك تحبنى حقا ؟!

توقف عمر يقدم لفافة لأبيه وأخرى لزوج عمتى ، فقالت عمتى تعبر عن تبرمها بمد الحروف :

ـ أكمل يادكتور ، أكمل !

وابرق فى ذهنى خاطر مكير فاندفعت أقول :

ـ يكمل ماذا ياعمتى ؟ عبد السلام وافقها طبعا .. فعرفها جيدا وفهمها وعرفته وفهمته . تأكد أنه يحبها ، وأدركت هى أنها ...

والتفت الى عمر أساله :

ـ اليس كذلك يادكتور ؟ !

تغير وجه أمى ..

وعلقت سوسن فى دهشة :

ـ عجبى !

وقال عمر بعد أن مال على يد زوج عمتى وأشعل لفافته :

ـ تمام ..

وسعل محمود ، طاب له السعال فسعل ..

وصاحت عمتى مستنكرة :

ـ بنت من هذه؟ مقطوعة من شجرة؟! هكذا تتفاهم مع الرجل .. لا أم ولا أب ولا عمة ولا خالة ؟! فتدخلت أمى تعزيها :

ـ يجوز أنها يتيمة، لابد انهايتيمة.. ماذا تفعل يا كبدى ؟ !

وتكلم محمود يفسر اليتم الذى فرضته أمى على ايفا :

ـ الحرب تركت ملايين الأيتام ..

فضحك عمر يستدرك :

ـ صحيح الحرب يتمت عشرات الالوف من بنات الشعب الألمانى ، لكن ايفا ليست يتيمة . كل الحكاية أن الأمهات والآباء هناك ، الأقارب على وجه العموم لا يتدخلون فى مسائل الزواج الا فى النهاية .. فى البداية وفى النهاية . فى البداية يربون البنات ، والأولاد، يفهمونهم قيمة الزواج ومعناه. يربونهم ويفهمونهم جيدا ثم يتركونهم وشانهم . وفى النهاية ، عند ما يتفاهم الشاب والشابة على كل شىء ، يذهب العريس ليقول لأهل حبيبته من هو .. ليثبت لهم أنه اهل لها .. ليطلب منهم يدها . طبعا الأهل لا يكونون نائمين ، ولكن يقظتهم تكون غالبا صامتة محايدة. رقيبة من بعيد لا تتدخل الا اذا دقت أجراس الخطر .

وصحت دون تفكير :

ـ معقول !

فهتفت سوسن تؤيدنى :

ـ واى معقول ؟ معقول وابن معقول!

وعاد محمود يسعل ، غلب عقله يقول متحفظا :

ـ معقول ، بشرط ان يكونوا غير نائمين .. حقا !

واردفت أمى على استحياء ، بعد ان نقلت نظرتها بينى وبين عمر أكثر من مرة :

ـ معقول ..

ففرت عمتى تغمغم :

ـ معقول معقول ، مالنا .. على رأى المثل أبى راض وأنا راض .. وعلى رأيه يا داخل بين البصلة وقشرتها !

***

معقول !

معقول ..

معقول ، معقول ..

لم أنم ، أنا ووسادتى .. أوشوشها وتوشوشنى : معقول .. معقول .. من يا سعاد ؟ عمر .. حبيبى عمر ياوسادتى الغالية ! صبرا.. غدا نتزوج فأحملك الى عشنا نريح رأسينا على صدرك ! لكنه لم يقل شيئا ، عن الزواج يا سعاد ! يا ساذجة .. وابتسامته ؟ وفرحته ؟ ويده تختلج فى يدى وهو ينصرف آخر الصيوف .. وتهاويل الضياء ترقص فى عينيه ؟ !

وعند ما بدأ النوم يسكرنى ، وأشعة الفجر تتسلل الى مخدعى فيتسع وتشيع فيه الطمأنينة ، كنت أراهن وسادتى أن قصة ايفا وعبد السلام مختلقة تماما.. مؤلفة من أولها الى آخرها !